دولة سلاطين المماليك فى الهند

(٦٠٣ — ٦٨٩ هـ = ١٢٠٢ — ١٢٩٠ م)

أوجه الشبه بينها وبين دولة المماليك فى مصر

للدكتور أحمد مختار العبادى

ترجع غزوات المسلمين فى الهند إلى العهود الأولى فى الأسلام ، فيروى البلاذرى أنه فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وجه عثمان بن أبى العاص الثقفى والى البحرين ، أخاه المغيرة بن أبى العاص الى خور الدَّيبُل — على الساحل الغربى لبلاد الهند ويعرف الآن باسم كراچى — فلقى العدو وظفر به ، فلما ولى عثمان بن عفان الخلافة ، ولى عبد الله بن عامر العراق وأمره أن يوجه الى الهند رجلا يستطلع أخبارها ويصفها له ، فوجه حكيم بن جَبَلة العبدى ، فلما رجع وصفها له . ولم يغز أحد هذه البلاد حتى عام ٣٩ هـ حين وجه اليها على بن أبى طالب حملة بقيادة الحارث بن مرة فغنم كثيراً من الغنائم والأسرى ، ثم قتل سنة ٤٢ هـ بأرض القيقان من بلادالسند مما يلى خراسان . وفى عهد معاوية بن أبى سفيان ، غزا عبد الله بن سَوَّار العبدى الذى كان أميرا على ثغر السند ، القيقان مرتين قتل فى ثانيتهما . وغزا المهلب ابن أبى صفرة الأزدى بلاد السند سنة ٤٤ هـ (٦٦٤ م) وامتدت فتوحه الى الأراضى الواقعة بين كابُل والمُلْتان جنوب البنجاب .

ولم يصبح اقليم السند ولاية اسلامية الا فى خلافة الوليد بن عبد الملك الأموى حينما قام محمد بن القاسم بن محمد الثقفى والى مكران ، بغزو بلاد الهند بعد أن جهزه قريبه الحجاج بن يوسف الثقفى بكل ما يحتاج اليه . فسار اليها عام ٨٩ هـ (٧٠٨م) وحاصر ثغر الدَّيبُل وفتحه عنوة وبنى مسجدا ، وواصل ابن القاسم فتوحه حتى بلغ نهر السند وكان يعرف اذ ذاك باسم مهر

مهران ، وهناك التقى بداهر ملك السند ، فاقتتلا قتالا شديداً ، وانتهى الأمر بقتل داهر وهزيمة اتباعه . واستمر ابن القاسم فى الفتح والتوسع حتى دانت له جميع بلاد السند من الساحل الى الملتان (١) .

وعلى الرغم من أن ولاة المسلمين الذين تداولوا حكم ولاية السند زمن الأمويين والعباسيين لم يحاولوا توسيع نطاق تلك الولاية ، فقد ظل اقليم السند ولاية اسلامية قرابة قرنين من الزمان . على أن التوسع الحربى الذى قام به المسلمون فى سهول الهند الشمالية فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى — أو العاشر الميلادى — لم يكن مصدره اقليم السند ، وانما كان مصدره اقليم أفغانستان عند تخوم الهند الشمالية الغربية حيث قامت فى مدينة غزنة فى قلب جبال سليمان ، دولة تركية قوية هى الدولة الغزنوية (٣٥١ — ٥٨٢ هـ = ٩٦٢ — ١١٨٦ م) .

وأول توسع قامت به الدولة الغزنوية فى الهند كان فى عهد ملكها ناصر الدين سُبُكْتِكين الذى فتح بُسْت وقصدار عام ٣٦٨ هـ (٩٧٨م) وهزم جيوش جَيْبال راجا لاهور وشتت شملهم على حدود البنجاب ، ثم ما لبث أن أسر جَيْبال نفسه — الذى يذكر احيانا باسم هايتال — ثم أطلق سراحه بعد أن تعهد بدفع الجزية .

وجاء بعد سُبُكْتِكين ابنُه محمود الغزنوى (٣٨٨ — ٤٢١ هـ = ٩٩٨ — ١٠٣٠ م الذى غزا بلاد الهند اثنتى عشرة مرة مدفوعا فى ذلك بعامل الجهاد الدينى والرغبة فى نشر الأسلام بين الهنود الوثنيين . واستطاع السلطان محمود أن يبسط نفوذه الى ما وراء قشمير والبنجاب وأن يجعل من اقليم البنجاب ولاية اسلامية يحكمها ولاة مسلمون من قبل الغزنوية(٢) .

---

(١) أنظر (البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٤٢٠ — ٤٣٣) راجع كذلك : (الدكتور حسن ابراهيم حسن : انتشار الأسلام فى الهند — مجلة كلية الآداب — جامعة القاهرة ، ١٩٤٤)

(٢) راجع التفاصيل فى (Wolseley Haig : The Cambridge History of India Vol. III pp. 1 — 37 & H. H Dodwell : India part I pp. A. 24 — 25 & Muir The Caliphate, Rise, Decjine, and Fall p. 353 — 354 & Lane Poole : Muhammadan Dynasties p. 283 — 284 & Ency. Britannica, Art. India p. 401) و(البلاذرى : نفس المصدر ٤٢٠ — ٤٣٣) .

وكيفما كان الأمر فان حملات الغزنويين فى بلاد الهند واتخاذهم مدينة لاهور مقرا لحكمهم هناك ، مهّد السبيل أمام خلفائهم الغوريين ثم سلاطين المماليك الأتراك لتدعيم النفوذ الاسلامى فى كافة أرجاء بلاد الهند الشمالية .

وقامت الدولة الغَوْرية (٥٤٣ — ٦١٣ هـ = ١١٤٨ — ١٢١٥ م) على أنقاض الدولة الغزنوية ، وتنسب هذه الدولة الى مكان نشأتها جبال الغَوْر وهى ولاية بين هِرَاة وغَزْنَة . واستطاع الغَوْريون أن يوسعوا مملكتهم حتى ملكوا ما كان يملكه الغزنويون من بلاد الغَوْر وأفغان والهند . فالدولة الغَوْرية هى ثانى دولة اسلامية هندية بعد الدولة الغزنوية . غير أن سلاطين هذه الدولة الغَوْرية لم يقيموا فى الهند دائما ، وانما كانوا يقيمون فى مدينة غزنة عاصمة ملكهم ، وصاروا يحكمون الهند عن طريق مماليكهم الأتراك . وقد أكثر السلطان محمد الغَوْرى من شراء المماليك واعتنى بتربيتهم واعدادهم لمهمة الغزو والجهاد . ويؤثر عنه أنه كان كلما ناقشه أحد عن ضرورة الحاجة الى ابن ذكر يحافظ على ملك أسرته من بعده ، أجابه بأن لديه الوفاً من الأبناء ، ألا وهم مماليكه الأتراك[1] .

وقد ارتفع بعض هؤلاء المماليك الى مناصب الحكم والقيادة : نذكر منهم تاج الدين يلدز Yildiz الذى حكم كرمان ، وناصر الدين كوباشا فى السند ، وقطب الدين أيْبَك فى دلهى وهو أقوى الجميع نفوذا[2] .

واستطاع محمد الغَوْرى بفضل جهود مماليكه وعلى رأسهم أيْبَك أن يملك جميع البلاد التى فى شمال جبال فندهياس Vindhyas حتى مصبات نهر الكنج ، فيعمها الإسلام وتتحول معابدها الهندوسية الى مساجد ، ويدفع راجاتها الجزية صاغرين .

---

(١) أنظر (Lane Poole : Medieval India under Mohammedan Rule p. 65) وتذكرنا هذه العبارة بعبارة الملك المنصور قلاوون أحد سلاطين الدولة المملوكية الأولى فى مصر ، وقد أكثر من جلب المماليك صغار السن والاعتناء بتربيتهم ، وكان يقول فى هذا الصدد : « كل الملوك عطوا شيئا يذكرون به ما بين مال وعقار ، وأنا عمرت أسوارا وعملت حصونا مانعة لى ولأولادى وللمسلمين ، وهم المماليك » راجع (المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٣) .

(٢) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ٢٧ .

وكان قطب الدين أيبك رجلا مسلما متمسكا بشروط الاسلام ، ويظهر ذلك بوضوح فى عدائه الشديد لنظام الطبقات الذى كان سائدا فى الهند ، ومعاملته للناس على اختلاف طبقاتهم على أساس المساواة التى ينص عليها الاسلام . وينسب لأيبك فى دلهى مسجد عظيم أسماه « قوة إسلام » وهو ذو منارة ارتفاعها ٢٥٠ قدما وهى تعد أطول منارة فى العالم ، ولا تزال قائمة الى اليوم وتعرف باسم « قطب منار » ، وتمتاز بنقوشها وزخارفها ذات الطابع العربى والهندى[1] ، وقد صدر حديثا أمر بعدم الاقتراب منها بعد أن كثر عدد المنتحرين الذين يرمون بأنفسهم من فوقها .

وفى مارس ٢٠٦ (٦٠٣ هـ) اغتيل السلطان محمد الغورى على ضفاف السند بيد أحد غلاة الاسماعيلية ، وبموته اختفت غزنه والغور من التاريخ وظهرت مدينة دلهى[2] كعاصمة اسلامية فى الهند .

لم يعش أيبك بعد موت سيده سوى بضع سنوات ، اذ انتهى حكمه كسلطان مستقل على هندستان فى نوفمبر ١٢١٠ م (٦٠٨ هـ) وذلك على أثر سقوطه من ظهر جواده أثناء لعبة الكرة أو البولو — جوكان — فتوفى على الأثر[3] .

---

(١) أنظر (Lane-Poole : Medieval India under Mohammadan Rule p. 68 — 69) ويقال ان السلطان التمش ملوك أبيه وزوج ابنته وخليفته على عرش دلهى هو الذى بنى هذه المنارة عام ١٢٢١ — ١٢٣٢ تكريما لولى الله قطب الدين بختيار الكعكى الذى أقام فى غزنة والملتان ثم استقر أخيرا فى دلهى حتى وفاته ١٢٣٥ م. راجع : (رحلة ابن بطوطه ج ٢ ص ١٩ ، وعن سبب تسميته بالكعكى ، أنظر كذلك (Wolseley Haig : Camb - Hist. of India III. p. 55.)

(٢) وتسمى أيضا دهلى ودلى (القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٦٨ — ٦٩) وتقع هذه المدينة فى قلب سهول نهر الكنج فى مكان أهلته الطبيعة ليكون عاصمة الهند الشمالية . ومن يستعرض تاريخ الهند العام يجد أن مدينة دلهى كانت مسرحا لوقائع حربية حاسمة لأهمية موقعها الاستراتيجى . وقد زارها الرحالة الطنجى المعروف بابن بطوطة فى القرن الثامن الهجرى (١٤ م) ووصفها بقوله "وهى المدينة العظيمة الشأن ، الضخمة ، الجامعة بين الحسن والحصانة ، وعليها السور الذى لا يعلم له فى بلاد الدنيا نظير ، وهى أعظم مدن الهند بل مدن الاسلام كلها بالشرق". (رحلة ابن بطوطه ، ج ٢ ص ١٦) راجع كذلك (H. Dodwell : India, I, p. 25 & Ency. Britannica, Art. India.)

(٣) أنظر (Ency of Islam, Art. : Aibeg) .

سادت الفوضى بعد موت أيبك مدة من الزمان تولى فيها المُلْك ابن غير كفوء يدعى أرام شاه ، وانتهى الأمر بأن خلعه أحد مماليك أبيه البارزين وزوج ابنته شمس الدين التتمش بمساعدة بقية الأمراء ، واستأثر بعرش دلهي لنفسه عام ١٢١٦م.

ويعتبر التتمش المؤسس الحقيقي للدولة سلاطين المماليك التي لم يعش أيبك مدة كافية ليدعم أركانها . فينسب الى هذا السلطان تأسيس مجلس من كبار أمراء المماليك عرف باسم « الأربعين » وكان الغرض منه هو تدعيم السلطان المملوكي في الهند . ومن حسنات التتمش أنه اشتد في رد المظالم وانصاف المظلومين ، فيؤثر عنه أنه أمر أن يلبس كل مظلوم ثوبا مصبوغاً وأهل الهند جميعاً يلبسون البياض ، فكان اذا قعد للناس أو ركب فرأى أحدا عليه ثوب مصبوغ ، نظر في قضيته وأنصفه ممن ظلمه(١).

وتمتاز عصر هذا السلطان أيضا بظهور المغول وزعيمهم جنكيز خان الذي هدد العالم الأسيوي بأجمعه . وأول نذير دل على اقتراب هذا الخطر من الهند ، هو فرار يلدز ، حاكم غزنه ، بجيوشه الى داخل الهند ، أمام ضغط الجيوش الخوارزمية المنهزمة بدورها من الجيوش المغولية . أخذت هذه القوى الثلاث تتجدر جنوباً بسرعة عنيفة عابرة سلاسل الجبال الشمالية الى داخل الهند . غير أن هذه العاصفة سرعان مازالت بنفس السرعة العظيمة التي جاءت بها ، اذ من حسن حظ الهند أن المغول اتجهت أبصارهم نحو الغرب فتراجعوا منسحبين عن الهند . أما الجيوش الخوارزمية وقائدها جلال الدين منكبرتي آخر شاهات خوارزم ، فانهم انسحبوا الى فارس بعد أن فشلوا في تأسيس امارة لهم في البنجاب .

خرج التتمش من هذه المحنة أقوى مما كان ، اذ أحدقت القوات المغولية والخوارزمية بقوات منافسيه في الشمال أمثال يلدز وكوباشا ، وصار من السهل عليه بعد ذلك أن يستعيد جميع ممتلكات أستاذه أيبك في شمال الهند وأن يتخلص من منافسيه بالقتل والتشريد(٢).

---

(١) رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ٢١ .

(٢) كان يلدز — كما سبق أن ذكرنا — قد استقل بحكم غزنة بعد وفاة سيده محمد الغوري سنة ١٢٠٦ ، وكذلك فعل كوباشا في اقليم السند . وقد انتهى أمرهما بأن قتل يلدز عام ١٢١٦ م وغرق كوباشا أثناء فراره عام ١٢٢٨ ، راجع (أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ١٢٢ — ١٢٣) ، وكذلك (Felix Pareja : Islamologia I, p. 254 — 255 & Wolseley Haig : Op. Cit III p. 52 — 55) .

وبلغ فوز التمش أقصى مداه حينما اعترف به خليفة بغداد المستنصر بالله العباسي ، سلطانا على الهند ، وبعث له بالتقليد والخلع والألوية والبنود في أوائل عام ١٢٢٩ م (٦٢٦ هـ) ، فأصبح التمش بذلك أول ملك في الهند تسلم مثل هذا التقليد . ومنذ ذلك التاريخ ضرب السلطان التمش نقوداً فضية نقش عليها اسم الخليفة العباسي بجوار اسمه . ويعتبر هذا العمل شيئا جديداً على نظام العملة الهندية ، اذ كان الغزاة المسلمون قبل ذلك يضربون نقوداً معدنية صغيرة على غرار النقود الوطنية ، تنقش عليها أشكال مألوفة لدى الهنود كثور سيفا مثلا ، كما كانت أسماء الغزاة تكتب بحروف هندية في غالب الأحيان . فالتمش يعتبر أول من ضرب نقوداً فضية عربية خالصة في الهند(١) .

وتوفي السلطان التمش سنة ١٢٣٦ م (٦٣٤ هـ) ولم تكن هناك شخصية قوية صالحة للملك من بعده سوى شخصية ابنته رضية الدين . كانت هذه السلطانة على حظ كبير من الذكاء ، حفظت القرآن الكريم وألمت بالكثير من التعاليم الاسلامية ، ولهذا فضلها أبوها على اخوتها الذكور لانغماسهم في الملذات ونادى بها ولية لعهده . ولما آلت اليها السلطنة ، دلت على مقدرة عظيمة وعقل وافر وسماها مؤرخو الهند باسم « ملكة دوران بلقيس جهان »(٢) أي فتنة العالم .

جلست رضية الدين على عرش دلهي أربع سنوات تقريباً (١٢٣٦ — ١٢٤٠ م (٦٣٤ — ٦٣٨ هـ) وقد بذلت جهدها لتظهر بمظهر الرجال ، فارتدت أزياءهم وخرجت أمام الناس سافرة تقود جيشها على ظهر فيلها .

وعلى الرغم من الجهود العظيمة التي بذلتها هذه الملكة في ادارة شئون الدولة فقد اصطدمت في النهاية بمجلس أمراء المماليك أو فرقة الأربعين الذين كانوا قد استأثروا بالنفوذ والثروة خصوصا بعد موت التمش

---

(١) أنظر : Arnold : The Caliphate p. 86 — 87 ; Ency. of Islam. Art. Illtatmish) - (Lane - Poole : Medieval India under Moham. Rule p. 73 ;

(٢) E. Blochet : Histoire des Sultans Mamlouks par Moufarzal Ibn Abil - Fazail Vol. I p. 375 Note.

وتقاسموا المملكة ووظائفها فيما بينهم بعد أن قضوا على جميع الأحرار فى مختلف الوظائف . وأنف هؤلاء المماليك من رؤية امرأة على العرش ولا سيما بعد أن قربت اليها رجلا عباسيا يدعى جمال الدين ياقوت كانَ يشغل وظيفة قائد الفرسان ، فقاموا بثورة حاولت السلطانة رضية قمعها بشجاعة ولكنها هزمت وانتهى الأمر بقتلها فى ١٣ أكتوبر سنة ١٢٤٠ م — ٦٣٨ (١).

فى هذا الوقت ظهر المغول فى اقليم السند من جديد واستولوا على مدينة لاهور فى ديسمبر سنة ١٢٤١م وذعروا سكانها ، وفر حاكمها قراقوش الى دلهى . فأصبح الموقف يستدعى ظهور شخصية قوية تقبض على زمام الحكم بيد من حديد ، وهذا مما ساعد على ظهور الأمير بلبان أو بلن أحد مماليك التتمش ، فاعتلى عرش السلطنة بعد أن تخلص من السلطان القائم فيها من أبناء سيده وتلقب بغياث الدين .

وتضيف الروايات المعاصرة أن بلبان كان ينحدر من أصل عريق وأن تحمسه للجهاد ضد المغول هو الذى جعله يرحل من تركستان منذ حداثته تاركا أهله وأصحابه . ثم حدث أن سرق وبيع فى الهند فاشتراه السلطان التتمش . وتزيد الرواية أن السلطان المذكور رفض شراء بلبان فى بادىء الأمر لدمامته وقصر قامته ، فصاح به بلبان : « ياخوند عالم .. (أى ياسيد العالم) لمن اشتريت هؤلاء المماليك الآخرين ؟ » فأجابه السلطان ضاحكا : « اشتريتهم لنفسى » . فرد عليه بلبان : « أذن فاشترنى أنا لله عز وجل » ، فأجابه السلطان الى طلبه ، ثم سرعان ماظهرت مواهبه فصار يتدرج فى الرقى حتى اندمج فى جماعة الأربعين مملوكا(٢).

اشتهر بلبان بشخصية عسكرية صارمة عادلة . وأول عمل اهتم به هو الحد من طغيان جماعة المماليك الأربعين ، فأعمل فيهم سياسة العنف والتفرقة حتى قضى على نفوذهم وسطوتهم . كذلك ضرب على أيدى المجرمين

---

(١) أنظر (Ency, of Islam, Art. Ridiyya & Camb - Hist of India Vol. III p. 60) ابن بطوطه ج ٢ ص ٢٢) وموقف هذه السلطانة يشبه تماما موقف السلطانة شجر الدر التى حكمت مصر عام ١٢٥٠ م (٦٤٨ هـ) والتى أثار حكمها أيضا استياء الرأى العام الاسلامى . ويتمثل ذلك فى الخطاب الذى وجهه الخليفة العباسى المستعصم الى أمراء المماليك فى مصر يقول لهم فيه : " ان كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسير اليكم رجلا " وقد أنتهى أمر هذه السلطانة بالقتل أيضا . راجع (المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٦٨ — ٣٦٩) .

(٢) رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ٢٣ ، أنظر كذلك (Lane Pool : Medier. India p. 18)

وقطاع الطرق الذين انتهزوا فرصة الاضطرابات الأخيرة وانبثوا فى المسالك والطرقات بين دلهى والبنغال يعيثون فسادا وتخريبا . فأزال بلبان الغابات التى كانت وكرا لتلك العصابات ، وشيد مكانها القلاع وأبراج المراقبة وبذلك استتب الأمن وعاد الاتصال بين دلهى والبنغال لفترة طويلة من الزمان .

كذلك عنى بلبان باقامة ادارة للمخابرات فى جميع المدن المختلفة ، ويشرف عليها مخبرون من قبله يعرفون بأصحاب الأخبار أو ملوك البريد . وكان تعيين هؤلاء الأشخاص يتم تحت اشراف السلطان نفسه وبناء على اختياره الشخصى وذلك نظرا لأهمية الأعمال التى يقومون بها فى كافة أرجاء الدولة ، اذ عن طريق تقاريرهم كان السلطان يلم بأحوال كل مدينة ، وسياسة أولى الأمر فيها . ولهذا السبب حرص بلبان على جعل سلطتهم مستقلة عن سلطة الولاة المحليين وخاضعة لسلطانه المباشر . ويروى المؤرخون كيف أن بلبان أمر بأعدام أحد هؤلاء المخبرين لأنه تستر على حادث هام وقع فى المدينة المكلف بأخبارها دون أن يخطره بذلك(١) .

وتجلت مواهب بلبان فى انتصاره على قوات المغول التى اقتحمت اقليم السند عام ١٢٧٩ م — ٦٧٨ فاستحق بذلك لقب « الق خان » أى الأمير القوى . وترجع انتصارات بلبان على المغول الى الاستعدادات الهائلة التى قام بها هذا السلطان لدفع ذلك الخطر الداهم أذ أعد مخازن هائلة للطعام بحيث يبقى الزرع بها مدة طويلة دون أن يفسد ، ويقول ابن بطوطة فى هذا الصدد : « وقد شاهدت الأرز يخرج من بعض تلك المخازن ولونه قد اسود

---

(١) أنظر (Wolseley Haig : Op. Cit III p. 74) راجع كذلك (رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ٢ — ٣) حيث يتكلم عن مهمة أصحاب الأخبار خصوصا اذا قدم غريب على البلد .. " واذا كتب المخبرون الى السلطان بخبر من يصل الى بلاده .. عرفوه أنه وزد رجل صورته كذا ولباسه كذا وكتبوا عدد أصحابه وغلمانه وخدامه ودوابه وترتيب حاله فى حركته وسكونه وجميع تصرفاته ، لايغادرون من ذلك كله شيئا " . وفى مكان آخر من ٩ نفس الجزء يقول ابن بطوطة : " وفى مدينة ملتان قدم علينا ملك البريد واسمه دهتان وهو خرقندى الأصل وهو الذى يكتب للسلطان بأخبار تلك المدينة وما يحدث بها ومن يصل اليها ".

ولكن طعمه طيب وكل ذلك من اختزان السلطان بلبن منذ تسعين سنة[1].
هذا وقد اهتم بلبان بتحصين الثغور الهندية وتجنيد قبائلها تحت قيادة ابن عمه شيرخان سنقر ، كما أعد جيشا قوياً سريعاً لصد أى هجوم خاطف يقوم به المغول فجأة — وذلك على حد قوله — حتى لا تتعرض مدينة دلهى لمصير بغداد التعس[2].

وفقد بلبان ابنه الاكبر الشهيد محمد خان فى واقعة ضد المغول فى اقليم الملتان وذلك فى ٩ مارس ١٢٨٥ = ٦٨٤ هـ فحزن عليه حزناً شديداً ومات بعده بسنتين[3].

يعتبر السلطان بلبان من أولئك الأشخاص الذين لا يتركون وراءهم خلفاء أقوياء ، اذ أن صرامته وقسوته حالت دون ظهور شخصيات قوية بعده ؛ فقد قضى على جماعة المماليك الأربعين ونفى كثيراً من ذوى النفوذ والجاه من الحكام أو العلماء (تذكر منهم شاعره أمير خسرو) . وكانت كل آماله مركزة فى شخص ابنه الأكبر الذى مات فى عهده . ولهذا اضطربت شئون المملكة بعد مماته مما أتاح الفرصة لقيام أسرة جديدة هى أسرة الخالجية[4] التى استولت على عرش دلهى سنة ١٢٩٠ م — ٦٨٩ تحت زعامة جلال الدين فيروزشاه .

هكذا انتهت دولة المماليك الأتراك فى دلهى . ومن العجيب أننا نرى أوجه شبه عديدة بينها وبين دولة المماليك الأولى التى قامت فى القاهرة . فلقد عاصرت كل منهما الأخرى تقريبا ، اذ قامت دولة المماليك فى الهند

---

(١) هناك وجه شبه عجيب بين السلطان بلبان والسلطان سيف الدين قطز أحد سلاطين الدولة المملوكية الأولى فى مصر . فكلاهما ينحدر من أصل عريق ، وكلاهما بيع بيع الرقيق ، فاشترى الأول السلطان ألتمش ، واشترى الثانى السلطان أيبك التركمانى ثم أخذا يتدرجان فى الرقى حتى أستأثرا بالملك بعد موت أسيادهما . وكلاهما كان متحمسا للجهاد ضد المغول وقد استطاع كل منهما أن ينقذ بلاده من ذلك الخطر المغولى الداهم الذى اجتاح بقية العالم الاسلامى ، فانتصر عليهم بلبان فى السند سنة ١٢٧٩ م ، كما انتصر عليهم قطز فى عين جالوت بفلسطين سنة ١٢٦٠ .

(٢) أنظر Wolseley Haig : Op. Cit p. 76 — 82

(٣) أسرة أفغانية نسبة لبلدة خالج بأفغانستان وقيل انها تركية الأصل ثم نزحت الى أفغانستان حيث أخذت عن أهلها عاداتهم وطرائقهم . أنظر (Wolseley Haig : Op. Cit p. 76 — 82).

عام ١٢٠٦ م - (٦٠٣ هـ) أربعا وأربعين سنة قبيل قيام دولة المماليك فى مصر (١٢٥٠) وظلت تلك الدولة المملوكية زمنا وعاصرت الدولة المملوكية فى مصر حتى سنة ١٢٩٠ م (٦٨٩ هـ) .

وكان سلاطين الدولتين من المماليك الذين جلبوا من أسواق النخاسة وربوا تربية عسكرية اسلامية للحرب والجهاد ، ثم تمكنوا بقوة نفوذهم وضعف أسيادهم أن يتدخلوا فى تولية السلاطين وعزلهم ثم يستأثروا بالملك لأنفسهم . هذا وقد كان العنصر التركى هو الغالب على مماليك الدولتين ، ونتج عن ذلك وجود تشابه فى الأسماء أمثال أيبك وبلبان وسنقر وقراقوش وغيرهم . وهدد الخطر المغولى كلتا الدولتين ، ولولا قوة المماليك فيهما لاجتاحهما كما اجتاح بقية العالم الاسلامى ، بل وكما اجتاح الهند نفسها بعد زوال هذه الدولة المملوكية بمدة من الزمان .

وشاهدت كلتا الدولتين ظاهرة فريدة من نوعها فى العالم الاسلامى وهى جلوس ملكتين على عرشهما ، فعلى عرش دلهى جلست الملكة رضية الدين ، وجلست الملكة شجر الدر على عرش مصر بعدها بعشر سنوات (١٢٥٠) فكانتا مثلين للكفاءة النادرة والكياسة الممتازة ، وهناك وجه شبه أخير تتلمسه فى تقرب سلاطين الدولتين للخلافة العباسية(١) لأن اعترافها بهم ورضائها عنهم سوف يقوى من نفوذهم الأدبى ويكسبهم صفة شرعية للحكم ، ويحيطهم بسياج مكين ضد محاولات منافسيهم فى انتزاع السلطنة منهم .

---

(١) ظلت دولة المماليك فى الهند على ولائها لخلافة بغداد حتى بعد أن قتل المغول الخليفة المستعصم وقضوا على الخلافة العباسية ببغداد ١٢٥٨ م (٦٥٦ هـ) ، إذ ظل السلطان بلبان ينقش اسم الخليفة المقتول على نقوده ويذكر اسمه فى الخطبة على المنابر طوال عهده (١٢٦٥ - ١٢٨٧) راجع (Arnold: The Caliphate p. 87) وهذه الظاهرة الفريدة نجدها أيضا بوضوح فى اليمن حيث بقى الدعاء للخليفة العباسى المقتول المستعصم بالله الى ما بعد سنة ٧٩٨ هـ . راجع (الخزرجى : العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية ج ١ ص ٦٩) ونجد هذه الظاهرة أيضا فى بلاد المغرب حيث يروى ابن خلدون أنه فى عام ٦٦٣ ثار والى طنجه على صاحب سبته وخطب للخليفة العباسى صاحب بغداد . أنظر (العبر ج ٧ ص ١٨٦ ؛ السلاوى ج ١ ص ١٧) . هذا ومن المعروف أن سلاطين المماليك بمصر عملوا على احياء الخلافة العباسية بالقاهرة بعد زوالها من بغداد وقد تم ذلك فعلا فى عهد السلطان بيبرس البندقدارى سنة ١٢٦١ م. واستمرت كذلك الى أن زالت نهائيا عقب الفتح العثمانى لمصر سنة ١٥١٧) .

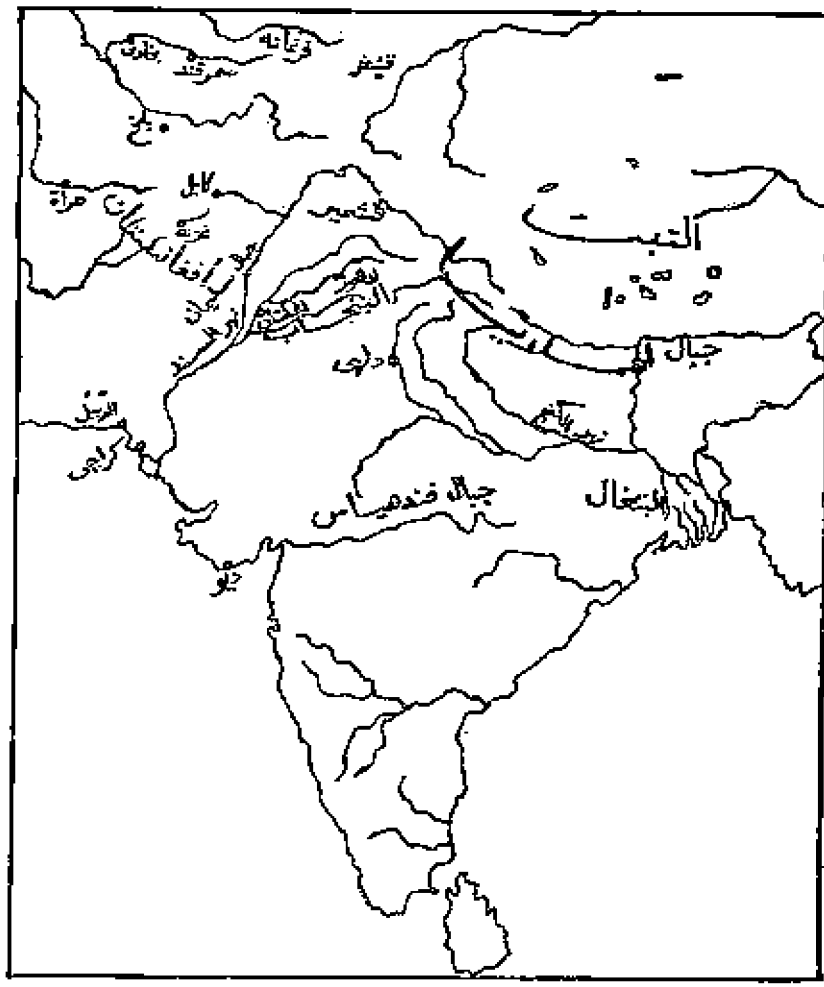

الهند في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)